فى عليـــين

للأستاذ عباس محمود العقاد

سلفادور مدرياجا أديب اسبانى كان أستاذاً للدراسات الاسبانية بجامعة أكسفورد . ثم ظهر فى عالم السياسة الأوربية على أعقاب الثورة التى قام بها في بلاد الاسبان جمهرة الأدباء والمثقفين ، فمثل حكومته فى عصبة الأمم والولايات المتحدة وفرنسا ، وراجت تواليفه التى تتمثل فيها عبقرية بلاده ، فترجمت إلى معظم اللغات الغربية

وقد لازمته روح الأدب حتى فى أعماله السياسية فرويت له طرائف شتى أثناء المناقشات المحتدمة في مشاكل الدول وأزمات الحكومات ، ومنها أنه حضر « مؤتمر السلاح » وسمع ما يقترحه كل فريق من الدول القوية من تقييد هذا السلاح أو السماح بذاك على حسب اختلاف العدة عند كل فريق ، فأصغى إلى الأعضاء الجادين في مناقشاتهم ومساجلاتهم ثم قال :

« أيذكر مسيو لتفينوف خرافة الحيوانات التى اجتمعت للبحث فى التقليم والتجريد ؟ لقد نظر الأسد فى ذلك المؤتمر إلى النسر ثم قال : علينا أن نلغى المخالب ؛ ونظر النمر إلى الثور ثم قال : علينا أن نلغى القرون ؛ ونظر الثور إلى النمر ثم قال : علينا أن نلغى الأظافر ؛ ونظر الدب إليهم أجمعين ثم قال : بل نلغى كل شئ إلا حق الصراع والعناق ! »

وعجب الناس من هـذه المؤتمرات التى تجتمع ثم تفترق ، وتفترق ثم تجتمع ، وهى لا تأتى بنتيجة وتعلم أنها غير آتيـة بنتيجة . فذهب إليه مراسل بعض الصحف وسأله : ما جدوى كل هذا الاجتماع والافتراق وكل هذا الافتراق والاجتماع ؟ وما يعنى الساسة المحنكون بهذا العناء فى غير طائل ؟ فكان جواب مدرياجا للمراسل :

« أسمعت قصة الصبي اليهودى ؟ إن كنت لم تسمعها فاعلم أن صبياً يهودياً تعود أن يصرف ريالاً أرباعاً ثم يصرف الأرباع سنتيمات ثم يعود فيرد السنتيمات في دكان آخر إلى أرباع فريال صحيح ؛ وهكذا كل يوم بغير تحول ولا انقطاع . فتعقبه بعضهم يوماً بعد يوم ولحق به فى طريقه بين الدكاكين فسأله كما تسألنى الآن : فيم هذا العناء على غير جدوى؟ قال الصبى : لابد من يوم يقع فيه بعض الناس في خطأ حساب ، ولن أكون أنا بعض الناس هؤلاء ! »

وقس على ذلك طرائفه التى يتناول بها معضلات السياسة بين الجد والمزح والنوادر والأمثال

آخر كتاب لهذا الأديب اللبق الأريب ظهر فى اللغة الانجليزية هو كتابه « فى عليين » وهو على هذه الوتيرة محاورات وأمثال ومحادثات وقعت كما تخيلها في عليين بين أرواح العظماء المرفوعين إلى السماء :

منها روح فولتير الفرنسى وجيتى الألمانى وكارل ماركس زعيم الاشتراكية وواشنطون ونابليون ومارى ستيوارت ونخبة من طراز هؤلاء

وهى غير مقصورة على أرواح الأموات دون الأحياء ، بل يشترك فيها بعض الاحياء الذين يستدعيهم أولئك العظماء من الأرض فى حالة النعاس أو حالة الغيبوبة

ويدور البحث بين هذه الأرواح فى كل ما يخطر لتلك العقول من مسائل الفن والسياسة والاجتماع ، ويتخلل ذلك كلمات بعضها مخترع وبعضها مما روى عن قائليه أثناء الحياة ؛ وقراءتها من أمتع ما يطلع عليه القارئ فى الأدب الحديث

من أمثلة ذلك أنهم اختلفوا على مشاركة الولايات المتحدة للأوربيين فى حل المعضلات العالمية . فأمر واشنطون باستدعاء روح من رجال مجلس الشيوخ المعارضين فى ذلك . فجاء الروح وكان أول ما استشهد به قول الرئيس واشنطون فى خطاب الوداع ، وجرى الحوار على هذا المنوال

الشيخ — ولم ياسيدي ؟ إن الجواب لظاهر . وتوقيراً لذكرى

أجدر بنا وأولى بسمعتنا ، وأحفظ لتاريخنا وآدابنا . فإن توهم متوهم أن الخطب فى هذا أمر يوكل إلى الزمن إصلاحه ولا يحتاج إلى عناية الأمة والحكومة فليسأل الباحثين من علمائنا وأدبائنا ليشكوا إليه ما قاسوا من الكتب المحرفة ، والنصوص المضللة . وإنا لراجون أن تبادر الحكومة إلى تبشير الأدباء بما تعتزم فى هذا الأمر العظيم ثم تتبع البشرى العملَ والوعدَ الإنجاز

عبد الوهاب عزام

الرئيس واشنطون أعيد كلماته التي يعيها جميع الامريكيين في أطواء القلوب ... لقد قال : « إن لأوربا طائفة من المصالح الأولية التي لامصلحة لنا فيها أو تكون علاقتنا ، بها جد بعيدة ، ومن ثم تتورط في أسباب الخلاف والشقاق التي لاتني تتعاقب وتتلاحق ، وهي أسباب غريبة عن شواغلنا ، فليس من الحكمة أن نزج بأنفسنا في غمارها ، ونعقد الروابط المصطنعة بيننا وبينها ، في أحوال سياستها المألوفة أو علاقات الصداقة والعداوة بين أجزائها »

ثم قال : « إن سياستنا هي أن ندير شراعنا بعيداً عن رياح الدول الأجنبية »

فالتفتوا جميعاً إلى القائد واشنطون فإذا به يقول :

واشنطون ـ عجيب ! إنني لم ... متى قلت ذلك ياحضرة الشيخ الموقر ؟

الشيخ ـ إخالك أنت الرئيس واشنطون . إنك لشبيه بتمثالك ولكن ليس بالشبه كله ، أفأنت الرئيس واشنطون بعينه ؟

واشنطون ـ نعم ياسيدي : ما يخلد منه

الشيخ ـ إني سعيد بلقائك أيها الرئيس . إن الكلمات التي سمعتها هذه اللحظة مقتبسة من خطاب وداعك

واشنطون (متذكراً) ـ وما ذاك ؟

الشيخ ـ حسن أيها الرئيس . إنه الخطاب الذي ألقيته لدواع لست أذكرها الساعة ، ولكني أذكر منها أنك ألقيته يوم اعتزمت ألا تنزو ميدان الانتخاب للرآسة

واشنطون ـ أغزو ؟ أنا ما غزوت قط ميدان الانتخاب ، ولكني أفهم ماتعنيه وإن كانت عباراتك غريبة عني بعض الغرابة

الشيخ ـ لم تكن من عباراتك . إلا أننا نحفظ دروسك عن ظهر قلب . لا اشتباك في المسائل الأجنبية :

واشنطون ـ ومع هذا ياحضرة الشيخ أقول لك إن الابتعاد عن حوافر الخيل سياسة حسنة لصغار الجراء ، ولكنها ليست بالسياسة الحسنة لكبار الأفيال

* * *

ومن أحاديث الرسالة كلمة توجهها مارى ستيوارت إلى الشاعر جيتي — وهو أستاذها ودليلها في السماء — فتقول له :

« إنك أيها الأستاذ العزيز تطلب « الحرية في النظام » ولكني أرى أن الحرية راجحة على النظام ، لأن الحرية خلاقة موجدة . أما النظام فقصاراه أن يحفظ ما هو موجود ، وهو يحفظ كل شيء ؛ ويالله من شيطان مسكين : يحفظ ما يستحق الحفظ وما هو حقيق بالتلف والزوال ، وكأنه ربة البيت المجنونة بالشح والتدبير ، فهو يحيط الحياة بنطاق من حديد ؛ ثم تأتي الحرية — حرية الأرواح القوية — فتحطم النطاق ولا تزال تفتحه فتحاً يوسع أطراف الحياة »

ومن أقوال مارى ستيوارت في هذا الحديث : « ليست الحياة متاجرة ، ولكنها مقامرة . وليست هي مقامرة الرجل مع رجال آخرين ، وإنما هي مقامرة الرجل مع الحياة نفسها »

ويقول فولتير في بعض أحاديثه : « لست أزعم أنني موضع ثقة الإله وأنني مؤتمن على سره كالدكتور جيتي الذي يطلع على الأسرار الإلهية ! بل إنني معترف بقلة الفهم لأساليبه ، ومن ثم لست على يقين من أسباب لجميع هذه الأشياء »

فيقاطعه واشنطون قائلاً : لا بد من أسباب على كل حال .

فتصيح بهم مارى ستيوارت : أفكل شيء يجرى على حكم العقل وحكم أسبابه ؟ ما أحسب ذاك !

فيجيبها كارل ماركس : « ليست الدنيا مستشفى مجاذيب »

فيعود فولتير قائلاً : «أحقاً ؟لست أدري، ولكن إذا جرت الأمور على هوى أتباعك الاشتراكيين وأتباع الامبراطور — يعني نابليون — المسكريين . فمن يدري ؟ »

* * *

ومن فكاهات فولتير في الرسالة قوله : « إن مذهب الشيوعيين الذين يدعون إلى استيلاء الحكومة على كل شيء لا يختلف عن مذهب الرهبان الذين يقولون باستيلاء الكنيسة على كل شيء » ثم يقول: « إن الشيوعيين هم الطبقة العصرية لطائفة اليسوعيين ! الغاية تبرر الواسطة ، وإلا فالأقوال الحتمية والتعميم والطاعة ، كأنما الإنسان جثة ميتة باختياره ، وإلا فهو جثة ميتة على الفور بغير اختيار ، ولا احتمال لمذهب غير المذهب ، ثم لا بد من تسليم البضاعة ... »

* * *

ويدور بعض الأحاديث في الرسالة عن الحرب كما يلي :

كارل ماركس ـ حرب . حرب . في أوربا كثير من أسباب الحرب غيري أنا ...

جيتي ـ على التحقيق ، ولكن أوربا كانت تعالج إصلاحها ومحوها ، وإليك مثلاً عصبة الأمم

كارل ماركس ـ فشل كامل !

جيتى ـ أتراك تنفض يديك من الشيوعية عند أول تجربة فاشلة ؟

كارل ماركس ـ كلا ! لأننى موقن بنجاحها الأخير

جيتى ـ وكذلك نجاح العصبة الأخير لا شك فيه

نابليون ـ لا . لا يادكتور جيتى . هذا يدهشنى أن أسمعه من رجل حكيم كما عهدتك

جيتى ـ إنما دهشتى من دهشتك

نابليون ـ نهاية كل قول أن الحضارة قائمة على القوة

واشنطون ـ كلا . بل الحضارة قائمة على العقيدة

كارل ماركس ـ العزة الإلهية مرة أخرى !

واشنطون ـ ليس هذا ماعنيت الساعة يا سيدى . وإن كنت أرى أننا لو تعمقنا فى الرأى الذى أبديته فنحن منتهون لا محالة إلى العزة الإلهية

نابليون ـ ولكنك حين تقول إن الحضارة قائمة على العقيدة أيها الجنرال ماذا تريد ؟

واشنطون ـ أعنى الصلة الروحية التى تبعث الناس إلى عمل يعلو على مآربهم الحيوانية الفريبة . أفتحسب أن جنودك ماتوا من أجلك لأنك أكرهتهم على ذلك ؟

نابليون : إنما أحسب جيشى دعامة حضارتى ، وإن جيشى على كل حال قوة !

واشنطون ـ ما كان جيشك إلا شجاعة ، وإيمان بك ، وحب لفرنسا

نابليون ـ ومدافع وذخائر وطعام

واشنطون ـ كل أولئك « مادة ميتة » بغير العقيدة

نابليون ـ أتريد عقيدة بغير مدفع ؟

واشنطون ـ خير من مدفع بغير عقيدة

جيتى مخاطباً نابليون ـ فالى يا سيدى ! تذكر معركة فالى ؟ لقد غلبت العقيدة بغير المدفع على المدفع بغير العقيدة فى تلك المعركة . إننى معك أيها الرئيس ، وإنى لشاكر لك إجابة الامبراطور وإن كان توجيه سؤاله إلى لعجبه من إيمانى بعصبة الأمم . ولقد أردت أن أقول له إننى لم أؤمن بالعصبة إلا لإيمانى بأن الجماعة من الناس ينبغى أن تبادر إلى حكم نفسها ساعة وجودها أو ساعة شعورها بوجودها ، فأما وجد الشعور بالجماعة الدنيوية فالحكومة الدنيوية لابد لها من وجود »

* * *

ومناقشة أخرى تدور بين فولتير وكارل ماركس عن سخافة الروايات الروسية الحديثة ، فيشير ماركس إلى أسباب اقتصادية لسخافتها ، ويعود فولتير فيقول :

فولتير ـ حتى تثبت أن غباوة جماهير المدينة نجمت من أسباب اقتصادية

كارلس ماركس ـ حقيقة ذلك ظاهرة

فولتير ـ بل هى على نقيض ذلك ، فما الأسباب الاقتصادية إلا وقائع ثانوية ؛ أما الوقائع الأولى فهى دوافع النفوس

كارل ماركس ـ كلمات وليس إلا كلمات

فولتير ـ أأنت فأر مدينة أم فأر خلاء ؟ تلك حقيقة ثانوية أما الحقيقة الأولى فهى أنك فأر على كل حال »

* * *

وجىء إلى السماء بوليام جننجز بريان الذى حارب أستاذاً لأنه علم مذهب داروين فى بعض المدارس الأمريكية

قال فولتير ـ فما هو إلا أن ارتفع إلى هنا حتى مثل بين يدى العزة الإلهية . فتهلل وليام جننجز بريان بشراً ، ولكنه لم يلق ترحاباً من جانب العزة الإلهية . فقال وهو فى حماسة تشغله أن يلمح ما حوله من قلة الترحاب فى هذا الجو لأنه قد صعد فى الأرض بحماسة كافية لاجواء عديدة : رب . هأنذا . لا يزال يغشانى غبار المعركة . لقد كانت حرباً زبوناً ، ولكن الظفر كان لنا

فأجابه الله بصبره السماوى ـ إن لغة المعركة والحرب والظفر لا تعجبنى

قال بريان ـ لكنك يا ألله رب الجنود . أو ليس هذا اسمك فى كتاب العهد القديم ؟

قال الرب فى حلمه السرمدى يلطف ما به : لقد كنت يومئذ ناشئاً ألهم أنبياء اسرائيل الهام الناشئين ! ولعلك نسيت أننى أرسلت إليكم منذ عشرين قرناً رسول حب وسلام

فخار بريان ثم توسل قائلا وهو فى ريب مما يسمع : ولكنى يا رباه قد حاربت أعداءك

فوسمه حلم الرب وسدده إلى الصواب وهو يوحى إليه أن